

محنة الشيخ عمر عبد الرحمن في بلاد الأمريكان

بقلم : عبد الآخر حماد

شيخنا الدكتور عمر عبد الرحمن مثال حي للعالم الصادع بالحق الصابر على ما يلقاه في سبيل ذلك من المحن والابتلاءات، ولقد كانت محنته في أمريكا التي يزعم قادتها أنها زعيمة العالم الحر مثلاً صارخاً على ما يحمله كثير من قادة تلك البلاد والمتنفذين فيها من حقد دفين على الإسلام والمسلمين، ومع أنا لا نميل كثيراً إلى الأخذ بما يسمونه بنظرية المؤامرة، بما تعنيه من تعليق نتائج أخطائنا على عاتق الآخرين، إلا أنه حين تكون الأدلة على الكيد والتآمر واضحة جلية، فما الذي يمنع من أن نسمي الأمور بأسمائها ونضعها في نصابها؟!

وإن المتابع لقضية الشيخ عمر عبد الرحمن لا يجد كبير عناء في اكتشاف حجم المؤامرة الدنيئة التي دبرت له، والظلم الصارخ الذي وقع عليه ليس فقط بمقاييسنا الإسلامية، بل حتى بمقياس كل قانون تواضع الناس عليه وكل عرف تعارفوا عليه .

وإني باعتباري واحداً ممن عاصروا محنة الشيخ من أولها وألموا بكثير من جوانبها رأيت أن أكتب هذه الكلمات تعريفاً بمحنة الشيخ وتبصيراً للشباب الذين سمعوا عن الشيخ ولم يعرفوه، ودعوة لأهل العلم والدين وكل قادر على بذل ما يستطيعون من أجل نصرته والشيخ والعمل على فك أسره وإطلاق سراحه .

ولنبداً القصة من أولها بشيء من الاختصار :

1- ففي اليوم الأخير من شهر رمضان سنة 1410 أي في أواخر شهر أبريل من سنة 1990م سمحت الجهات الأمنية في مصر للشيخ عمر عبد الرحمن بالسفر لأداء العمرة، ولكنه حين وصل إلى مطار القاهرة كانت رؤية هلال شهر شوال قد ثبتت، ولذا لم يسمح له بالسفر إلى الأراضي الحجازية لأن تأشيرة العمرة التي كان قد حصل عليها كانت محددة بانتهاء شهر رمضان، فقرر السفر إلى الخرطوم، ومنها حصل على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

ورغم أن حصول الشيخ في تلك الفترة على تأشيرة دخول لأمريكا كان يعد أمراً غير مستغرب، إلا أنه وبعيداً عن الإشاعات المغرضة التي أطلقها البعض بعد ذلك من كون ذلك دليلاً على علاقة الشيخ ببعض الأجهزة الأمريكية، أقول بعيداً عن تلك الإشاعات التي ثبت زيفها وبطلانها، فإنني لا أكتفم القراء الكرام أنني وبعض الإخوة الذين كانوا في ذلك الوقت خارج مصر لم نبد ارتياحاً كبيراً لسفر الشيخ إلى تلك البلاد، وقد انتابتنا في تلك الفترة هواجس كثيرة لم يكن لنا من دليل عليها سوى أننا نتخوف من أن يكون السماح بدخول الشيخ إلى هناك مقدمة لمؤامرة تحاك ضده، أو أن يلتف حول الشيخ بعض المغرضين أو حتى بعض المتحمسين الذين لا يحسنون تقدير الأمور فينتج من تحمسهم ما يضر ولا ينفع، ولذا فقد استقر الرأي بعد مشاورة الشيخ على أن يسافر أحدنا إلى أمريكا ليكون معه يعينه ويساعده، وقد وقع الاختيار على العبد الفقير كاتب هذه السطور ليقوم بهذه المهمة، وقد تقدمت فعلاً بطلب الحصول على تأشيرة من القنصلية الأمريكية، ولكنهم رفضوا إعطائي التأشيرة، ثم أعدت الكرة بعد عدة أشهر وكان نصيبي الرفض أيضاً مع أنني تقدمت لهم بدعوة لحضور مؤتمر إسلامي كان سيعقد في تلك الفترة في إحدى المدن الأمريكية، ومع أنهم تأكدوا من صحة الدعوة وصحة المعلومات حول عقد ذلك المؤتمر، إلا أنهم أصروا على رفضهم دون إبداء الأسباب .

2- سافر الشيخ إلى أمريكا بعد أدائه فريضة الحج في تلك السنة 1410هـ ، وفي شهر يوليو من عام 1990م وصل إلى الولايات المتحدة ، ثم حصل علي الإقامة الدائمة بصفته إماماً وخطيباً لأحد مساجد بروكلين .

3- في العام التالي 1411هـ أي في أوائل صيف عام 1990م سافر الشيخ إلى الأراضي الحجازية مرة أخرى للحج ، ولدى عودته بدأت المضايقات الأمنية له حيث احتجز لعدة ساعات في مطار كيندي ، وسحبت منه بطاقة الإقامة بدجة أنه لم يذكر في طلب الإقامة أنه متزوج في مصر باثنتين ، وهو ما يعد مخالفة لقوانين الهجرة والجنسية ، ثم غيروا التهمة بعد ذلك إلى كونه وهو -الرجل الكفيف- يشكل خطراً على الأمن القومي الأمريكي ، مطالبين بترحيله إلى مصر ، إلا أنه ظل لفترة مطلق السراح في انتظار قرار المحكمة في مسالة ترحيله

وأذكر أنني في تلك الفترة رجوته في مكالمة هاتفية أن يحاول الخروج من تلك البلاد لأننا لا نأمن المكر به في ظل تلك المضايقات ، لكنه أخبرني بأنه لا يستطيع ذلك نظراً لسحب أوراقه منه .

4- في أوائل يوليو 1993 أصدرت وزيرة العدل الأمريكية قراراً باعتقال الشيخ لحين البت في قضية الهجرة مستندة إلى بند استثنائي في القانون الأمريكي يسمح لها بذلك ، ولما تفاوضت محامية الشيخ مع السلطات الأمريكية على السماح للشيخ بمغادرة الولايات المتحدة إلى بلد غير مصر ، أبدت تلك السلطات موافقة مبدئية على ذلك بشرط أن تعلن دولة ثالثة استعدادها لقبول الشيخ ، وحينئذ بادر الشيخ طلعت فؤاد قاسم (أبو طلال القاسمي) رحمه الله بتوجيه رسالة عاجلة إلى قلب الدين حكمتيار الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لوزراء أفغانستان يناشده فيها قبول الشيخ في بلاده ، ولم يتردد حكمتيار في التجاوب مع هذه الدعوة ، بل بادر بإعلان قبول الشيخ في أفغانستان إذا طلب اللجوء السياسي إليها .

5- وكان المتوقع أن تبادر السلطات الأمريكية بترحيل الشيخ إلى أفغانستان ليرحوا أنفسهم من القلق الذي يسببه لهم وجوده عندهم ، إلا أنه تبين أن هناك قضية كانت تطبخ ومؤامرة كانت تحاك خيوطها في الخفاء ، حيث أعلن الادعاء الأمريكي بعد يوم واحد من إعلان حكمتيار -أي في الخامس والعشرين من أغسطس 1993 - أعلن عن توجيه عدة تهم للدكتور عمر عبد الرحمن منها : التحريض على ارتكاب جرائم العنف والاعتقال ، والتحريض على نسف المنشآت العسكرية الأمريكية ، والتآمر لنسف وتدمير بعض المباني الهامة في نيويورك ، والتآمر والتحريض على اغتيال الرئيس حسني مبارك أثناء زيارة كانت مقررة له إلى نيويورك في تلك الفترة، وكانت أعجب تلك التهم وأغربها هي تهمة التدريب على صناعة المفرفعات -وإن كانت المحكمة قد حذفت هذه التهمة فيما بعد -.

وقد ظهر في أثناء محاكمة الشيخ أن تلك التهم كانت مبنية على أقوال مرسله صدرت من الشيخ رداً على استفتاءات كان يصوغها بعناية وإلحاح عميل مصري يدعى عماد سالم دسه عليه جهاز المباحث الفيدرالية الأمريكية ، وأمدوه بالأموال الطائلة من أجل تنفيذ مهمته في الإيقاع بالشيخ وتوريطة في بعض الأقوال التي يمكن محاكمة الشيخ على أساسها .

ومع أن القانون الأمريكي لا يجيز التوصل إلى القبض على الأناص المشتبه بهم عن طريق تحريضهم على ارتكاب الجرائم ، إلا أن رجال المباحث الفيدرالية كانوا يحرضون العميل المذكور على الإيقاع بالشيخ عن طريق توجيه بعض الأسئلة إليه ومحاولة الحصول على إجابات معينة منه ، حتى إن هناك شريطاً قد قدم بطريق الخطأ إلى المحكمة وكان يحوي مكالمة بين عماد سالم وبين ضابط في المباحث الفيدرالية يعلمه

فيه الضابط كيف يوجه السؤال للشيخ، ويطلب منه أن يحاول استدراجه ليقول عبارات معينة؛ لأن تلك العبارات هي التي يمكن اتخاذها أدلة ضده.

كما ثبت أن ذلك العميل كان يحرض بعض الشباب الأغرار الذين كانوا يترددون على مجالس الشيخ على ضرورة القيام بعمل مسلح ضد الولايات المتحدة الأمريكية موهماً إياهم أنه قد أخذ الإذن من الشيخ بذلك، وهو ما لم يحدث بالكلية، وراح يجهز لهم مكاناً يتدربون فيه على صناعة المتفجرات، وفيما بعد استند الادعاء الأمريكي على ذلك في إثبات وجود جماعة إرهابية يقودها الشيخ للقيام بتفجيرات وحرب مدن في داخل أمريكا.

6- وفي تلك الفترة كان الإعلام الأمريكي الذي يسيطر عليه الصهاينة يشن- أبشع- الحملات ضد الشيخ مصوراً إياه بأنه المحرك الأول لما يسمونه بالإرهاب، حتى إنهم كانوا يزجون باسمه وصورته في كل حديث عن الانفجار الذي حدث في مركز التجارة العالمي عام 1993م مع أن وزيرة العدل الأمريكية كانت قد أعلنت أن الشيخ لا علاقة له بذلك التفجير، ولكنها الحرب الإعلامية القذرة التي يستهدف من ورائها تشويه صورة الشيخ والتأثير على هيئة المحلفين لتتخذ قرارها بإدانة الشيخ.

7- في بداية عام 1995م بدأت محاكمة الشيخ، ولقد كانت إجراءات تلك المحاكمة معيبة من أساسها، فقد قدمنا أن القانون الأمريكي يمنع الإيقاع بالمشتبه فيه من خلال تحريضه على ارتكاب جرائم، وقد ثبت لدى المحكمة من خلال الشريط الذي قدم إليها بطريق الخطأ أن ذلك هو ما حدث مع الشيخ، بل إن محامية الشيخ قد سألت عماد سالم في إحدى جلسات المحاكمة عما إذا كان هدفه الأول هو الإيقاع بالدكتور عمر فأجابها بالإيجاب، وقد كان ذلك كافياً لإسقاط التهم عن الشيخ، ولكن المحكمة استمرت في نظر القضية.

8- لم تستغرق هيئة المحلفين أكثر من ثلاث ساعات لتتوصل إلى قرارها بإدانة الشيخ مع أن ملفات القضية كانت تحوي آلاف الأوراق، في حين احتاجت هيئة محلفين أخرى في نفس تلك الفترة إلى أكثر من ثلاثة أيام لتتوصل إلى قرار برأت فيه الممثل الأسود (سيمسون) من تهمة قتل مطلقة وصديقها رغم توافر الأدلة ضده، ومنها شريط بصوت هذا الممثل يقول فيه لمطلقة إنه سيقتلها، فإذا علمنا أن أكثرية الهيئة التي برأت ذلك الممثل الأسود كانت من السود علمنا عمق ما وصل إليه النظام القضائي في أمريكا من الانحراف حتى عن كل مبادئ العدالة ولو بمفهومها العام الذي يسمونه بالقانون الطبيعي.

وقد رأينا بعد ذلك (في عام 2005) كيف أن هيئة المحلفين في قضية المغني مايكل جاكسون قد برأته مما وجه إليه من تهمة التحرش الجنسي بالأطفال مع أنه كانت هناك وثائق مؤكدة نشرها أحد الصحافيين البريطانيين يعترف فيها مايكل جاكسون صراحة بمشاركة السرير مع أطفال، والأغرب من ذلك أن اثنين من أعضاء هيئة المحلفين في قضية جاكسون قد أعلنوا بعد ذلك ندمهما على تبرئة مايكل جاكسون قائلين: لقد اكتشفنا أنه مذنب بعد أن التقينا بعائلات الضحايا.

وهذا كله دليل على أن نظام القضاء الشعبي أو ما يسمى بالمحاكمة عن طريق المحلفين هو نظام معيب من أصله؛ إذ هو يولي أمر الإدانة والبراءة أناساً غير متخصصين، وإنما تلعب بهم الأهواء، وتؤثر فيهم بدرجة كبيرة اتجاهات الرأي العام وأجهزة الإعلام.

9- في اليوم الثاني من أكتوبر من عام 1995 أصدرت المحكمة حكمها على الشيخ بالسجن مدى الحياة بالإضافة إلى خمسة وستين سنة أخرى، وقد عمد القاضي -

وقد كان يهودياً - إلى قانون استثنائي قديم لم يطبق منذ الحرب الأهلية الأمريكية ليحاكم الشيخ بمقتضاه ، فأصدر تلك الأحكام القاسية بناء على زعم لو صحت فإنه لا يقبل منطق ولا عقل أن تكون عقوبتها هي تلك الأحكام ، ويكفي أن نعلم أن عقوبة السجن مدى الحياة كانت فقط على تهمة التحريض على قتل الرئيس حسني مبارك ، أما بقية التهم فقد كانت عقوبتها هي السنين الخمسة والستين الأخرى .

فإذا جئنا لنبحث على أي دليل استندت المحكمة وهيئة محلفيها في إدانة الشيخ بتهمة التحريض على اغتيال الرئيس مبارك لم نجد من خلال الأشرطة التي قدمت للمحكمة أي إشارة لهذا التحريض المزعوم ، مع اجتهاد العميل عماد سالم في محاولة الإيقاع بالشيخ كما أسلفنا ، وإنما اعتمدوا على ما ذكره العميل عماد سالم من أنه قد أعد هو وشخصان آخران خطة لاغتيال الرئيس في الفندق الذي سينزل فيه ، وأن ذلك كان يعلمه الشيخ عمر ، ثم جاء هذان الآخران فشهدا شهادة زور ضد الشيخ ، في مقابل تحويلهما من متهمين إلى شاهدين وإعطائهما الجنسية الأمريكية ، وقد نفى الشيخ أي علاقة له بهذه المؤامرة المزعومة ، والجريمة لم يشرع فيها أصلاً ، بل إن الزيارة قد ألغيت من أساسها ، كما أنه ليست هناك أية مضبوطات أو أدلة مادية تدل على أن هناك إعداداً ولو مبدئياً لمثل هذا المحاولة المزعومة ، فهل يصح عقلاً أن تكون عقوبة التحريض على عمل لم يتم بل لم يشرع فيه ، بل لم يقر أحد بأي إعداد له هي السجن مدى الحياة ، فأية عدالة هذه ؟ وأي حقوق للإنسان يتشدد الأمريكيان بأنهم سدنتها والمحافظون عليها ؟

وأما تهمة التحريض على قتال الجيش الأمريكي ونسف المنشآت العسكرية الأمريكية ، والتي كانت عقوبتها عشرين عاماً ، فقد كان دليل الإدانة فيها كلمة صدرت من الشيخ فك الله أسره رداً على استفتاء وجهه إليه المدعو عماد سالم حول جواز تفجير مبنى الأمم المتحدة ، وكان رد الشيخ عليه واضحاً بعدم الإقدام على ذلك ، بل كرر له الشيخ كلمة لا ثلاث مرات ، ولكن مع إصرار ذلك العميل صدرت من الشيخ كلمة اعتبروها تحريضاً على قتال الجيش الأمريكي حيث قال له : إذا أردت أن تفعل شيئاً فليكن ضد الجيش الأمريكي .

وقد بين الشيخ في مرافعته أمام المحكمة أنه ما قال له ذلك إلا لبعده عما كان يفكر فيه من استهداف مبنى الأمم المتحدة ؛ لأن ذلك المبنى هدف مدني يمكنه الوصول إليه ، أما فكرة عمل شيء ضد الجيش الأمريكي فهي فكرة عسيرة بل تكاد تكون مستحيلة التنفيذ ، فلم يكن قوله ذاك بغرض التحريض على قتال الجيش الأمريكي بقدر ما كان إشعاراً له بالعجز حتى لا يفكر في ذلك الأمر .

وأياً ما كان الأمر ، فحتى لو اعتبرنا هذه الكلمة من باب التحريض فهل يعقل أن يسجن شخص عشرين عاماً من أجل كلمة لم يذنب عليها أي فعل مادي ولم تطلق على أساسها رصاصة واحدة ؟!

10 - في يوم الاثنين 16 أغسطس 1999 أصدرت محكمة الاستئناف قرارها برفض الاستئناف المقدم لتبرئة الشيخ ، وكان مستند قاضي الاستئناف في تأييد الحكم المستأنف ضده أن القانون الذي اعتمد عليه القاضي السابق هو قانون ساري المفعول رغم أنه قانون قديم لم يطبق منذ حوالي مئتي سنة .

11- وإذا كانت محاكمة الشيخ قد شابها ما أشرنا إليه من الظلم السافر ، إلا أن عنصرية القوم وحقدهم على الإسلام وأهله لم تقف عند هذا الحد ، بل تعدت إلى التصييق على الشيخ في سجنه ، بل وإبذائه جسدياً ومعنوياً ، فالشيخ منذ القبض عليه في عام 1993 وحتى الآن محبوس حبساً انفرادياً ، لا يسمح له بصلاة الجماعة ولا أن يقابل أحداً من المسجونين ولا أن يتكلم مع أحد منهم ، ثم صاروا يضيقون عليه في الزيارات حتى منعوها بالكلية ، بل وصل الأمر إلى حد أن واحداً من ضباط السجن قد اعتدى عليه جسدياً حيث أوقعه أرضاً وركله بقدميه وضربه على رأسه حتى شجّه ، لا لشيء إلا لأنه سمع صوت الأذان ينبعث من ساعته ، كما ذكر الشيخ لبعض من زاره منذ عدة سنوات قبل منع الزيارة عنه أنهم يدخلون عليه في زناناته روائح كريهة وغازات ضارة

تحدث له آلاماً شديدة في جسده وتؤثر على ذاكرته ، حتى صار يقضي وقتاً طويلاً في محاولة سد منافذ الزنزانة وما تحت الباب من أجل منع وصول تلك الروائح إليه ، إلى غير ذلك من أنواع الإهانة والإيذاء .

12- وأخيراً فإني أذكر أنني قد قرأت منذ فترة تصريحاً لأحد المسؤولين في مصر يذكر فيه أنه ربما كان بقاء الشيخ في السجن الأمريكية أفضل له من العودة إلى مصر ودخول السجن فيها ، فالسجون الأمريكية -بحسب رأي هذا المسؤول- أكثر راحة من السجن المصرية .

وإني أقول : إننا بالطبع لا نريد للشيخ سجنًا لا هنا ولا هناك ، وكفاه ما لقي في حياته من السجون والمعتقلات ، ولكن إن كان لابد من المفاضلة بين السجن في أمريكا والسجن في مصر ، فإني أقول كما يقول أهلنا في مصر : نار مصر ولا جنة أمريكا ، وليس السجن في أمريكا خيراً من السجن في مصر ، بل العكس هو الصحيح ، ولست أقول ذلك بناء على الواقع الحالي الذي شهدت فيه أحوال السجون في مصر تحسناً كبيراً ، وإنما أقوله حتى بمقاييس الفترات الحالكة التي عشناها وعاشها الشيخ في سجون مصر قبل سفره للخارج ؛ فإن تلك الأيام رغم قسوتها وما وقع فيها من التجاوزات إلا أن الشيخ لم يكن يعدم فيها أن يجد رقيباً (شاويشاً) طيباً يرفق به ، أو ضابطاً حسن الخلق يعطف عليه ، لأنهم كانوا في النهاية يعلمون أن هذا الرجل عالم من علماء المسلمين مهما كان موقفهم من آرائه وأفكاره ، ويكفي أن نعلم أن الشيخ في فترة سجنه الأولى في عام 1981م وبعد انتهاء التحقيقات كان قد وضع في مستشفى السجن وكان الإخوة من الشباب يتناوبون على خدمته وينهلون من علمه ، وكانت زيارات أهله له مستمرة بصورة منتظمة أو شبه منتظمة ، فأين من ذلك ما أشرنا إليه مما لقيه الشيخ وما زال يلقاه في سجون الأمريكان من صنوف الإيذاء البدني والنفسي والحبس الانفرادي الذي لا يزال فيه منذ حوالي خمسة عشر عاماً لا يكلم أحداً ولا يكلمه أحد ؟

اللهم فرج كرب شيخنا الشيخ عمر عبد الرحمن ، اللهم إنا ما علمنا عنه إلا أنه كان في شبابه مجتهداً في طلب العلم عاملاً به ، وما رأيناه في كهولته إلا طائعاً لك مخبتاً منيباً صادقاً بالحق ، فالطف اللهم به في شيخوخته ، وارحم ضعفه وغربته ، وقبض له من عبادك من يسعى في إنهاء محنته وإعادته لأهله وأبنائه وتلاميذه ، إنك أنت أرحم به منا ومن الناس أجمعين .
اللهم وعليك بهؤلاء الظالمين الذين يؤذون عبادك الموحدين ، اللهم كما آذوا عبدك عمر عبد الرحمن فانتقم منهم فإنهم لا يعجزونك يا قوي يا متين ، اللهم املأ بيوتهم وقبورهم ناراً ، وأرنا فيهم آية من آياتك يا رب العالمين ، آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الآخر حماد